

القومية العربية والاستعمار الفرنسي

بقلم

حبيب جاماني

ما هي الدولة الاستعمارية التي فاقت غيرها إمعاناً في مناصبة الشعوب العربية العداء؟ إنجلترا أم فرنسا؟
ومن هم ألد أعداء العرب، وأعداء خصوم القومية العربية؟ الإنجليز أم الفرنسيون؟

الرد على هذا السؤال يؤدي إلى الحيرة: فالفرقتان في هذا المضمار سواء يتزاحمان، ويتسابقان، وكل منهما يعمل لنفس بأن يكون أشد تنكياً بالعرب، وأبعد ضرراً بالقومية العربية، من الفريق الآخر . . .

والفارق الوحيد بين إنجلترا وفرنسا في هذا الصدد، يتناول الأسلوب فقط، لا الهدف والغرض. فالفرنسيون أوفر رعونة وأكثر ضجيجاً من الإنجليز، والإنجليز أوفر رياء وأكثر نفاقاً من الفرنسيين.

ومن جهة أخرى، نرى الفرنسيين قد بسطوا نفوذهم، وفرضوا حكمهم في غفلة من الزمن، وبسبب التخاذل الذي انتاب الشعوب العربية، على رقعة من بلدان العرب أوسع من الرقعة التي أخضعها الإنجليز لنفوذهم وحكمهم.

والحديث هنا يقتصر على الفرنسيين . وعلى فرنسا والاستعمار الفرنسي بالنسبة إلى القومية العربية ، قبل أن تصحو من سباتها ، وفي خلال نهضتها وبعد أن انطلقت في حلبة الرقي والتحرر والسيادة . . .

لنمر بسرعة على الحروب الصليبية التي كان فيها العامل الديني يلعب الدور الأول . وعلى الصراع الذي قام في وقت من الأوقات ، وخلال حقبات طويلة ، بين الفرنسيين الراغبين في السيطرة على البحر المتوسط من ساحله الشمالي نزولاً نحو الجنوب ، وبين العرب الراغبين في السيطرة على هذا البحر من ساحله الجنوبي صعوداً نحو الشمال .

لنمر بسرعة على ما تخال ذلك الصراع الرهيب من حوادث حربية وسياسية ، لكي نصل إلى بداية العهد الذي يمكن أن نسميه « عهد الاستعمار » وهو الذي بزغ فجره ، وطلع نجمه ، في خلال القرن الثامن عشر لاسيلاً ، بعد أن فتحت أمام الغرب سبل المواصلات مع الشرق ، وزادت شهية الغربيين لآلتهام الخيرات التي كانت في ذلك الوقت من نصيب الشرقيين . . .

وضعت الأمم الأوروبية إمكانياتها الحربية في خدمة مطامعها التجارية . وتطلعت كل دولة من دول الغرب القوية إلى بقعة من بقاع الشرق حبتها الطبيعة بمركز ممتاز أو بثروة مرموقة . وراحت تسعى لاحتلالها قبل أن تمتد إليها مطامع دولة أخرى . . .

وفي ذلك الوقت ، كان العثمانيون يسيطرون على أقطار عديدة وأقوام

متنافرين . وكانت البلدان العربية كلها خاضعة لحكم السلطان العثماني
الفعلي أو الاسمي ، بما فيها سواحل أفريقيا الشمالية ، التي تنطاع إليها فرنسا
وتتبارى معها في حلبة السباق لبسط النفوذ والتحكم في البحار

وكان الإنجليز من ناحيتهم يسعون للسيطرة على طريق الهند حيث
ثبتوا أقدامهم . وأراد الإمبراطور نابليون الأول ، منذ أن كان لا يزال
قائداً من قواد الثورة الفرنسية ، وقبل أن يضع التاج على رأسه ، أن يسبق
الإنجليز ويقطع عاينهم ذلك الطريق ، تمهيداً لانتزاع الهند منهم

قام بوناپرت بحملته على مصر في سنة ١٧٩٨ . وكانت الحملة موجهة
ضد تركيا في الواقع ، وضد الإنجليز في الحفاء

تلك الحملة ، في نظر المؤرخين ، هي بدء الحروب الاستعمارية في
البلدان العربية ، التي كانت لا تزال ، في ذلك الوقت ، تابعة للإمبراطورية
العثمانية

سقط نابليون ، وانهار عرشه ، بعد أن أفلتت منه مصر وبقيت جزءاً
من الدولة العثمانية ، وتولى الحكم فيها محمد علي باشا وأسرته من بعده .
وعادت الملكية إلى فرنسا فراح المسؤولون في حاشية الملك يبحثون عن
مشروعات يشغلون بها الرأي العام فضلاً عن القوات المسلحة . وذن هنا
عاودت الفرنسيين الرغبة في شن حروب استعمارية وكسب ممتلكات وراء
البحار

تطلعوا حولهم ، ونشروا أمامهم خريطة العلم ، فرأوا إن أقرب البلدان
التي يمكن الاعتداء عليها ، والتي لا تملك قوة كافية للدفاع عن نفسها ،

تقع على الساحل الإفريقي الشمالي ، قبالة الساحل الفرنسي من الجنوب ..
ورأوا أن الجزائر أقل البلدان الأفريقية الشمالية مناعة ، فقرروا
مهاجمتها .

وافتعلاوا حادثاً أصبح منذ ذلك الوقت نموذجاً للدهاء والمكر والتحرش
في مضممار السياسة القائمة على العسوان . فقد تطاول قنصل فرنسا في الجزائر
على حاكمها ، فضربه الحاكم بمنشة كان يحملها ، وكان هذا كافياً لكي
ترسل فرنسا إلى الجزائر حملة عسكرية لاحتلالها ، بحجة غسل الإهانة التي
لحقت بها في شخص قنصلها الوقح !

كان ذلك في سنة ١٨٣٠ في نخلال حكم الملك لويس فيليب .
وقد أحرز الفرنسيون في بادئ الأمر ساساة من الانتصارات . ولكن
القبائل العربية في الجزائر ونحلت كاستها ، وجمعت صفوفها ، بقيادة
البطل الخالد الأمير عبد القادر بن محي الدين ، ونظمت المقاومة ،
فاستمرت الحرب بين الوطنيين المجاهدين والغرباء المعتدين سنوات عديدة .
فحرب الجزائر التي شنتها فرنسا في عام ١٨٣٠ كانت إذن أول حرب
استعمارية ينطبق عليها هذا الوصف ، ذهب ضحيتها شعب عربي ،
ودنيت بأضرارها « القومية العربية » الناشئة في ذلك العهد .

فالأمير عبد القادر الجزائري لم يحارب فرنسا الاستعمارية بوصفه حاكم
الجزائر من قبل السلطان العثماني بل بوصفه زعيم الشعب العربي في الجزائر ،
وقائد المجاهدين المدافعين عن قوميتهم العربية . فهو ، من الناحية التاريخية
أول زعيم عربي قاوم الاستعمار الغربي ، المحسم في الحملة الفرنسية على الجزائر .

ومن أغرب ما حدث ، قبيل قيام فرنسا بحملتها تلك ، أن دارت مفاوضات بين لويس فيليب ، ملك فرنسا ، ومحمد علي باشا ، والى مصر للتعاون بين الصديقين في احتلال الجزائر ، على أن يكتسب الغنيمة فيما بينهما ولكن محمد علي امتنع في النهاية عن عقد تلك المحالفة التي - لو تمت - لحلبت العار على مصر بسبب حاكمها الغريب ، الذي فضل الزحف على سوريا لانتزاعها من الترك لحسابه الخاص ، على الزحف إلى الغرب نحو الجزائر لاحتلالها بالاشتراك مع فرنسا .

ومند أن نجحت فرنسا في احتلال القطر العربي الباسل ، أو على الأصح في احتلال سواحله ومواصلة القتال للتغلغل في داخله ، مند ذلك الوقت ، أصبحت فرنسا حاملة لواء العداء ضد العرب ، وأدخلت في صلب سياستها الخارجية ، خطة استعمارية واضحة ، ترمى إلى انتزاع البلدان العربية من أصحابها ، بلداً بعد بلد ، ومنع القومية العربية من التنفس والتبلور والانطلاق من عقالها .

فبعد مرور نصف قرن على اجتياح الجزائر ، وقبل أن تنتهى فرنسا من احتلال البلاد كلها ، وإخضاع قبائلها بالقوة ، نزل الجيش الفرنسى فى تونس ، وفرض عليها معاهدة الحماية فى سنة ١٨٨١ .

كانت ألمانيا قد هزمت فرنسا فى الحرب المشهورة سنة ١٨٧٠ . وخرجت فرنسا من تلك الكارثة مهيمضة الجناح جريحة مفلسة . وأراد المسئولون مرة أخرى أن يشغلوا الرأى العام بحادث يحول أنظاره إلى الخارج ، فافتعلوا الأسباب لإرسال حملة استعمارية إلى الصين الهندية ، ثم لإرسال

حملة أخرى إلى البلاد التونسية .

راحت الجزائر ضحية الطمع الاستعماري الفرنسي بعد حرب ١٨٣٠ .

وراحت تونس بعدها ضحية ذلك الطمع ، بعد حملة ١٨٨١ .

فقد أراد الفرنسيون أن يثأروا لأنفسهم مما حل بهم من هزيمة وعار على

أيدي الألمان ، فانتقموا من شعب عربي مسالم لم يسيء إليهم بل كان في وقت من الأوقات صديقهم وحليفهم !

وهكذا اعتدى الفرنسيون على القومية العربية مرتين ، في الجزائر سنة

١٨٣٠ ، وفي تونس سنة ١٨٨١ ، ولا ندخل في الحساب اعتداءهم على

مصر في سنة ١٧٩٨ . . .

وظلوا سائرين في هذا الطريق : طريق العدوان على العرب كلما

سئحت لهم الفرصة ، أو كلما أرادوا أن يغسلوا سمعتهم من عار لحق بها

على أيدي الغير !

عولوا على أخذ أفريقيا الشمالية كلها ، لأن هذا يضمن لهم السيطرة

على البحر المتوسط ، وبنهذه الوسيلة وحدها يكبحون جماع مزاحمتهم الإنجليز

أسياد البحار . . .

ولكن الإنجليز قوم يساودون على كل شيء . . .

فساودهم الفرنسيون وتفاهم الفريقان على اقتسام مناطق النفوذ ، على

أن يحولوها فيما بعد إلى مناطق احتلال واستعمار .

وكانت المساومة على حساب القومية العربية . . .

القومية العربية الناشئة الصاحبة من سباتها في مصر ، وفي تونس

والجزائر ، وفي المغرب الأقصى ، ثم في قلب الدولة العثمانية ، في سوريا ولبنان والحجاز . . .

وقف اللصان ينظران ، ويرقبان ، ويضعان الخطط : اللص الفرنسي الذي أخذ تونس والجزائر ويطمع في المزيد ، واللص الإنجليزي الذي أخذ مصر في سنة ١٨٨٢ ويطمع في الاستئثار بها دون أى منافس .

وتم الاتفاق على العمل معاً في سنة ١٩٠٤

أطلقت فرنسا يد إنجلترا في مصر والسودان ، وأطلقت إنجلترا يد فرنسا في الشمال الإفريقي كله ، بما فيه المغرب الأقصى .

وبدأ الفرنسيون يتدخلون في شؤون الدولة المغربية المستقلة ، وتحول تدخلهم إلى احتلال ، وأسفر الاحتلال عن فرض معاهدة الحماية في سنة ١٩١٢ .

ولكن اتفاقية ١٩٠٤ كان لها ذبول . وكان لها توابع !

قامت الثورة العربية الكبرى ، على الدولة العثمانية ، بقيادة شريف مكة الحسين بن علي الهاشمي ، سنة ١٩١٦ . فحالف الإنجليز العرب وحالفهم أيضاً الفرنسيون . ولكن هؤلاء الحلفاء ، خانوا العرب بعد انهيار الدولة العثمانية ، واقتسموا بلادهم التي كانوا قد تعهدوا بأن يساعدهم على جعلها دولة مستقلة .

الثورة العربية كانت مظهراً من مظاهر القومية العربية الناهضة . وهذه القومية كانت ، في نظر الفرنسيين ، نذيراً خطراً يهدد سياستهم الاستعمارية .

ولهذا تآمروا مع الإنجليز . فاحتل هؤلاء العراق وفلسطين ، واحتلوا هم سوريا ولبنان . وعلاوة على هذا الاحتلال ، جاء الإنجليز باليهود وأحاوهم في فلسطين ، بحجة إنشاء وطن قومي لهم عملاً بوعده الصادر سنة ١٩١٧ .

وهكذا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وفي أقل من قرن كامل ، كان الفرنسيون بفضل عدوانهم المتواصل على القومية العربية ، قد احتلوا من أوطان العرب الجزائر ، وتونس ، والمغرب ، وسوريا ، ولبنان . وكان الإنجليز شركائهم في التآمر والعدوان ، قد احتلوا مصر والسودان وعدن والساحل الجنوبي لجزيرة العرب وإمارات الخليج العربي والعراق وفلسطين ! ولكن القومية العربية لم تخمد أنفاسها تحت تلك الضربات المتوالية . فقد واصل العرب جهادهم في سبيل المهوض والتحرر ، بالوسائل السلمية تارة ، وبالعنف والقوة تارة أخرى . ولم تكن للاستعمار الكلدمة الأخيرة ، كما كان المستعمرون يأملون ويعتقدون .

ثارت الأقطار العربية المحتاة كلها على الحكم الأجنبي والطغيان الاستعماري ، كل منها بدورها : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وسوريا ، ولبنان ، قامت في هذه البلدان ثورات ضد الفرنسيين - وقامت أيضاً ، من ناحية أخرى ، ثورات ضد الإنجليز في الأقطار التي فرضوا عليها حكمهم ، ولم يشد بلد عربي واحد ، ولم يتردد شعب عربي واحد عن الالتجاء إلى الثورة ، كما فشلت مساعيه السلمية ، للتخلص من المستعمرو واسترداد الحرية الغالية .

ثورات العرب على الفرنسيين سلسلة متواصلة الخلفات :

في الجزائر لم تنقطع الثورات منذ بدء الاحتلال ، بعضها محلي ، وبعضها عام ، واليوم ، بعد ١٢٦ سنة على نزول الفرنسيين في الجزائر ، تتحداهم القومية العربية ، وتندلع في جميع أنحاء البلاد نيران ثورة تذكّر الفرنسيين بأهوال المعارك التي خاض غدارها أبطال عبد القادر الجزائري الميامين !

وفي تونس ظلت الثورات تهب وتهدأ : ولا تهدأ إلا لكي تهب من جديد ، واشتدت وطأة المقاومة الوطنية . وهبت القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، منذ سنة ١٩٤٥ ، مما أرغمت فرنسا معه على الاعتراف باستقلال تونس وإنهاء نظام الحماية فيها !

وفي المغرب ، تكال جهاد الوطنيين بالانجاح ، وأسفرت ثوراتهم العديدة عن نتائج انتقل بها المغرب من مصاف بلد خاضع للحماية ، إلى مصاف دولة مستقلة ذات سيادة !

وسوريا ولبنان خلعوا نير الحكم الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية . فقد ثار لبنان في سنة ١٩٤٣ واستقل . وثار سوريا مرة بعد مرة ، بلا كلال ولا ملل ، وكانت ثورتها الكبرى في سنة ١٩٢٥ ، وثورتها الأخيرة في سنة ١٩٤٥ ، فاستقلت أيضاً . . .

كل بلد عربي حل فيه الفرنسيون مستعمرين ، باسم الاحتلال ، أو الحماية ، أو الوصاية ، أو الانتداب ، ثار إذن عليهم ، واسترجع حريته منهم . ولا تزال الجزائر تكافح وتناضل في هذا السبيل . وسوف تسترجع

حريتها أيضاً ، كاملة غير منقوصة .

وأول قطار عربي استرجع استقلاله من فرنسا ، لبنان . وتبعته سوريا وأنشئت جامعة الدول العربية في مصر ، سنة ١٩٤٥ . فكانت فرنسا أول دولة ناصبتها العداء ، لأن الجامعة العربية كانت مظهراً ملموساً ، وتطبيقاً عملياً ، ليقظة « القومية العربية » وانطلاقها نحو أهدافها النهائية : التحرر التام ، والوحدة الشاملة .

وهذا ما لا تريده فرنسا لأنه ينطوي على القضاء على استعمارها لجاناب من العالم العربي .

ولهذا حاربت الدول العربية مجتمعة في هيئتها الجديدة ، بعد أن حاربتها متفرقة ، وكلا منها على حدة .

وتجلبت ضغينة فرنسا ، وبان حقدتها ، وبأغ عداؤها الذرورة . في تأمرها الأخير مع إنجلترا ودولة اليهود الدخيلة في فلسطين المحتلة ، على الغدر بمصر وإرغامها على الخضوع لإرادة الدولتين الاستعماريتين ، وإطامع صنيعتهما الصهيونية .

طعنات نالتها القومية العربية من فرنسا ، خلال ما يزيد عن قرن من الزمان ، كان الدين سدودها إلى صدر العروبة يظنون أنها نافذة قاضية . ولكن العروبة ظلت بخير تعاند القدر وتصارع المعتدين . . .

طعنات متوالية متواصلة . . .

طعنة في الجزائر سنة ١٨٣٠

طعنة في تونس سنة ١٨٨١

طعنة في المغرب سنة ١٩١٢

طعنتان في سوريا ولبنان سنة ١٩١٩

طعنات عديدة في هيئة الأمم المتحدة ضد المطالب العربية وقضايا

العرب العادلة .

طعنات بعضها يسنده العنف ، وبعضها قائم على الحقد والغدر ،
وبعضها ينطوي على التشني والحيانة ، وكأها في آن واحد طعنات موجهة
إلى العدل ، والإنصاف ، والحق ، والمثل العليا التي نحاتها الغرب ونخرج
عليها ، فاحتضنها الشرق وغداها بالمهيج والأرواح !

وتلك الطعنات الفرنسية التي تتابعت خلال قرن وأكثر ، ومعها
الطعنات الإنجليزية التي لا تقل عنها فظاعة وغدراً ، كل تلك الطعنات
أيا كان نوعها ، وشكلها ، ومداهها ، قد ألهمت الشعور في الصدور ،
وأحيت الآمال بين الضامع ، وساهمت في إيقاظ العرب من غفوتهم ،
وبدل أن تخنق القومية العربية في مهدها — كما كان يريد المعتدون
الضاربون — فعلت عكس ذلك ، فعجبت ترعرع القومية العربية ،
وتقويتها ، وفوزها ! . . .

فالقومية العربية الآن ، وبعد كل ما حدث ، قد تغلبت على
الاستعمار ، وزحزحته عن معاقه ، وقوضت حصونه ، وهدمت أسواره ،
وطاردته في الميدان حيث يتراجع ويتقهقر نحو الهوة السحيقة التي لا بد له

من السقوط فيها ، عاجلاً أو آجلاً . . .

بل عاجلاً لا آجلاً . . .

فهو الآن ، فهو اليوم ، فهو في هذه الساعة ، يتعثر ، ويترنح ،
ويالهث . . . وهذا مقدمة للهزيمة النهائية ، والسقطة التي لا قيام بعدها ! .